جامعة نايف العربية للعلوم الأمنية

Naif Arab University For Security Sciences

أطفال الهجرة السرية وأشكال استغلالهم

د. أحمد بنعمو

٢٠٠١م

أطفال الهجرة السرية وأشكال استغلالهم

د. أحمـــد بنعمـــو

أطفال الهجرة السرية وأشكال استغلالهم

مقدمة تاريخية

إن حركة الهجرة بصفة عامة ليست ظاهرة جديدة في تاريخ الإنسانية. فالاكتشافات والفتوحات والنكبات والنزوحات الجماعية والسياقات السياسية، وكذا البحث عن مستقبل واعد للأفراد والعائلات والمنحدرين منها تتولد عنها أشكال متعددة للهجرة وفي حقب مختلفة. ويكفي الاستشهاد هنا بنماذج من هجرات الأنبياء عليهم السلام مع أنصارهم؛ وقبل قيام الدول القومية ككيانات ذات حدود، كانت أرض الله الواسعة مجالا مستباحا ولم تكن أية قيود على الهجرة أو السفر؛ «فمع نهاية القرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر كانت قد تشكلت في أوربا الدولة القومية على أيدي القوى الملكية الناهضة»[1].

إن الهجرة قد تكون داخلية أو خارجية: الأولى تشمل العديد من التنقلات التي تتم داخل الرقعة الوطنية ذاتها كهجرة سكان البوادي نحو المدن الكبرى أو نحو مناطق تتيح فرصا للشغل، وفي حالات كثيرة قد تكون من أجل البقاء على قيد الحياة.

والثانية عرفت فيها الهجرة، منذ عدة عقود، موجات مختلفة من وإلى عدة جهات ومناطق خارج إطار الأقطار؛ مخترقة حدود الدول وبإيقاع سريع تحت ضغط عدة عوامل منها ما هو اقتصادي أو اجتماعي أو من جراء

---

(١) حسن الضيقة: الظاهرة الرأسمالية نظرة نقدية في التاريخ والايديولوجيا، دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٩٤م، ص ١٥.

النزاعات والحروب أو نتيجة النمو أو حتى الانفجار- الديمغرافي في بعض البلدان وضيق سبل العيش.

وكيفما كانت تجليات الهجرة داخلية وطنية أو خارجية دولية فإنها دائما تتضمن شكلا من أشكال الاقتلاع والاجتثاث من الجذور.

ربما كانت جميع الأصناف من الهجرة التقليدية سواء على المستوى الداخلي أو على المستوى الخارجي مقبولة نسبيا حينما يتعلق الأمر بالأشخاص الراشدين القادرين على الصبر وتحمل المشاق، واعتبارا لجملة من التبريرات القاهرة والدوافع الضرورية. لكن وخلال السنوات الأخيرة ومنذ عقد الثمانينات تقريبا بدأ المغرب يعرف نوعا جديدا فيما نعتقد من الهجرة الخاصة بأطفال قاصرين-وشباب يافعين-ولسنا ندري مدى انتشار ظاهرة هجرة الأطفال الصغار في بلدان أخرى وتحت أي دافع من الدوافع إنما الذي نرجح في ظننا هو أنها على هذا النحو المغربي تختلف ونكاد نقول إن بلادنا ربما تختص وتتميز بها وبانتشارها بهذه السرعة وبهذا الإلحاح وبشكل أكثر من ملفت للأنظار؛ بل يتسم في كثير من الحالات كما سنرى بمخاطر جسيمة ؛ قد توجد حالة أطفال المكسيك الذين يهاجرون إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ولكننا لا نظن أن الصعاب هي نفس الصعاب؛ فالحدود برية بينما في الحالة المغربية هناك مخاطر البحر والموت المتربص على جنبات الطريق إلى »الشمال«. هذا يختلف عن هجرة الأطفال مع ذويهم هربا من الحروب الأهلية في مناطق من افريقيا وآسيا مثلا تلك التي تشهد هذه المنازعات والاضطرابات فيكون السكان المتضررون أو المهددون، بمن فيهم الصغار، مضطرين إلى النزوح إلى مناطق وبلدان أخرى بعد قطع مسافات على الأرجل وفي ظروف جد صعبة أو قد يلجأون إلى البحر وركوب أهواله مثل Boat people من الفيتنام ولا تخلو مثل هذه النزوحات

من مآس وفظائع كما طفت أخبارها على السطح وفي وسائل الإعلام الدولية المختلفة منذ عقد من الزمن أو يزيد.

وحسب المكي بنطاهر: «فإن تطور ظاهرة الهجرة المغاربية إلى فرنسا مثلا لاتكتمل إلا إذا عدنا إلى التاريخ القريب لنجد الأسس للسياسة الحالية للهجرة، وبالفعل فالفترة الاستعمارية تكشف لنا هذه المعطيات الأساسية... وبالخصوص السياسة الوطنية للفترة الاستعمارية التي كانت ترمي إلى توفير السواعد لفرنسا فيما يخص العمل وكذا تزويد صفوف الجيش (ب «الرجال»)[1]..

الهجرة السرية: ظاهرة «الحريك» وقوارب الموت

لقد مضى الزمن الذي كانت فيه الهجرة الرسمية والمرغوب فيها من دول الجنوب إلى دول الشمال الأوربية يوم كانت هذه الهجرة قصرا فقط على الرجال من ذوي السواعد القوية التي كانت البلدان الغربية في أمس الحاجة إليها خاصة بعد فترة الحرب العالميةالثانية، فكان من الطبيعي بعد التدمير والخراب الذي لحق الكثير من البنيات التحتية والمنشآت الصناعية في معظم مدن أوربا بالإضافة إلى انخفاض عدد الرجال داخل الهرم السكاني، وليس يغيب عن ذهن أحد أن بناء اقتصاديات أوربا وإعادة بنائها كان بفضل مساهمة هذه القوى البشرية خاصة من بلدان شمال افريقيا عموما والمغرب الأقصى خصوصا. ليس في نيتي أن أفصل في مسألة التأريخ لهذه الهجرة ولا لموجاتها بقدر ما يهمني تجاوز ذلك والالتفات إلى الموضوع أو

---

(1) BENTAHAR Mekki; les Arabs en France; SMRyER; Rabat. 1979. p.23.

الظاهرة في تطورها وربما في الاتجاه السلبي وأقصد بذلك الجوانب اللا إنسانية لعمليات الهجرة السرية وبالخصوص لفئة عمرية من الأطفال والشبان المغاربة والوقوف عند بعض المظاهر الابتزازية والاستغلالية التي يكونون عرضة لها منذ أن تدور بخلدهم الفكرة وتغدو مسيطرة عليهم .

إن المثير في هذا النوع من الهجرة هي أنها ذات طابع سري بمعنى أنها غير شرعية ومن يقوم بها هم أطفال قاصرون أو شبان مراهقون دون سن العشرين في الغالب . يبقى إذن التساؤل عن تطور الظاهرة بعد ظهورها بل بعد أن لم تكن معروفة بالمرة ، فكيف تفاقمت واستفحلت واصطبغت بهذه الصبغة المأساوية والكارثية والمحرجة بالنسبة للدولة المغربية؟ وما هي طرق هذه الهجرة؟ وما هي دوافعها؟

لم تعرف ظاهرة الهجرة السرية إلى أوربا من بلدان المغرب العربي وحتى من دول جنوب الصحراء الإفريقية : مثال السيراليون وخاصة من فئات الشباب والأطفال القاصرين هذه الحدة والإصرار والذيوع كما عرفتها في الآونة الأخيرة وبالخصوص خلال العقدين الأخيرين من القرن العشرين إلى الدرجة التي أصبحت معروفة تحت تسميات شائعة لدى جميع الأوساط تقريبا ويتحدث عنها الناس في كل مكان وتتناولها وسائل الإعلام المختلفة- هذه التسميات هي «الحريك» أو «قوارب الموت» بكل ما تحمله الكلمة من تداعيات ودلالات بل وحتى ما تحيل عليه أحيانا بواقعة إحراق »طارق بن زياد« لسفن جنده عند فتحه للأندلس .

الحريك : فمن خلال المعنى والدلالة التي أصبحت لهذه الكلمة في اللغة الدارجة المغربية تكون لها عند سماعها شحنة انفعالية قوية ، إلى درجة أنها تكثف جملة من الأحاسيس والمشاعر إحساسات لاتخلو من تناقض

وجداني ومفارقات (Ambivalence)، إحساسات تختلط فيها الأحلام الوردية بالكوابيس السوداوية. فهي من جهة، ترمز إلى التحدي والمخاطرة ومن جهة أخرى، إلى عدم اليقين والشك في المصير المجهول بل إنها توحي بالتهور، بتلاطم الأمواج وتحطم القوارب على الصخور، بالعواصف الهوجاء والرياح العاتية، بالغرق والموت والجثث الطافية على سطح البحر إلى غير ذلك من الأهوال ومشاهد القيامة-الهلاك-التهلكة.

ليس الرجال والنساء وحدهم «الحاركون».. بل حتى الأطفال القاصرون

من الناحية السيكولوجية قد تشبه حالة هؤلاء الفتية حالة من أصيبوا بهستيريا جماعية ربما تحت تأثير ضغوط ذاتية واجتماعية، ضغوط الأسر على أبنائها إلى الهجرة رغم كل التخوفات ربما قد تكون لعوامل التنافس والتباهي بين أبناء المنطقة أو البلدة الواحدة أو القرية أو نفس الحي في نفس المدينة، ربما بفعل العذابات اليومية وأنواع القلق التي تنتاب هؤلاء الأطفال وفي بعض الحالات القصوى قد نجد كذلك ما يقرب من أعراض بعض الاضطرابات النفسية الوخيمة مثل العصاب الوسواسي القهري Compulsive Nevrosis Obsessive أو المتسلط. «وفي هذا النوع من العصاب تتردد على الشخص باستمرار وعلى غير رغبته فكرة معينة أو يلازمه انفعال إزاء أشياء أو مواقف معينة أو يحس بدافع يدفعه إلى إتيان عمل معين يبدو للغير سخيفا أو خاليا من المعنى أو القيمة أو الغرض، (وإن كان له في الواقع مغزى رمزي)»[1].

---

(١) وليم الخولي: الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب العقلي، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى ١٩٨٦م، القاهرة، ص ٣١٨.

والفكرة المستحوذة هنا بصدد موضوعنا هي فكرة الهجرة التي لا يقوى الأطفال على التملص من التفكير فيها لأن الرغبة في تحقيق هذه الأمنية تستغرق عليهم كيانهم وتملأ حياتهم كلها إلى الدرجة التي قد تغدو أقرب إلى الأعراض المرضية العصابية . . . \ما يبدو سخيفا أو خاليا من المعنى بل ما يصبح في نظر المجتمع منتهى العبثية هو أن وجزر الكناري الإسبانية وما يفصل بينهما من مياه المحيط الأطلسي وكلها محفوفة بالغرق والموت، ولكنه الوسواس القهري الذي يستحوذ على نفوس هؤلاء الأطفال «الحاركين» أو المرشحين »للحريك« ؛ فكأن قيمة الحياة لم تعد تساوي شيئا، وكأن بلوغ الضفة الشمالية يستحق تقديم الروح قربانا لذلك، قد يرى البعض في ذلك حماقة واستهتارا ولكن الواقع هو أن فئات عريضة جدا من الشباب والأطفال ترغم الأسر على دفع مبالغ مالية ليس في طاقتها بتاتا من أجل حلم قد يتحقق أو مجرد أوهام وسراب أو شراء مصير يلاقي فيه هؤلاء الفتية حتفهم .

فلم يعد الأمر يقتصر على حالات فردية معزولة ومتباعدة من حين لآخر أو فقط محصورة في أعداد قليلة سرعان ما يطويها النسيان، وإنما تفاقمت المسألة وأصبحنا أمام أفواج و أفواج من هؤلاء الفتية الذين أصابهم مس من جنون الارتحال والهجرة إلى الضفة الأخرى الشمالية ؛ ومن هنا تحتاج مقاربة الظاهرة المذكورة في نظرنا إلى ضرورة الإحاطة بها في شموليتها أي في أبعادها الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والنفسية والثقافية الحضارية وغيرها من الجوانب، وعلينا أن نحاول تقصي الدوافع والأسباب والوقوف على الشروط والملابسات والإلمام بالأوضاع العامة المحيطة و الفاعلة في ظاهرة الهجرة هذه حسب ما يسمح به المقام وهو ما سنعمل على تبيانه وتفصيله على قدر المستطاع .

ولعل العودة قليلا إلى الوراء ستسعفنا في إلقاء مزيد من الضوء كي نستطيع أن نفهم جيدا كيف نشأت الظاهرة وتطورت وتنوعت في شتى تمفصلاتها وجوانبها المختلفة وتفاعلاتها واتجاهاتها شمال/ جنوب و جنوب/ شمال، كل هذا بنوع من الإيجاز والاختصار. لا بد من التمييز بين أبناء المهاجرين سواء الذين ولدوا بالمهجر أو الذين التحقوا في إطار السماح بتجميع أفراد العائلة الواحدة وسواء كذلك الذين أنجبوا من زيجات مختلطة لأحد الوالدين المغربيين، وبين الأطفال المغاربة القاصرين الذين أقدموا بأنفسهم على ركوب مغامرة الهجرة السرية وغير القانونية في الغالب متوسلين إلى ذلك بمختلف الطرق. . .

مشكلات «الجيل الثاني» ومشكلات الأطفال «الحاركين»

إن مشاكل كل صنف من هذه الأصناف مختلفة ومتميزة عن بعضها البعض فبينما ترتبط مشكلات الصنف الأول بالمحيط الأسري ووضعية الأطفال داخل إطاره وما ينجم عنها من صعوبات في أساليب التربية والتنشئة الاجتماعية للوالدين ومدى تكيف أفراد الأسرة مع واقع المجتمع الأوربي الذي يوجدون فيه، و هو ما يصطلح عليه عادة عند الدارسين الاجتماعيين للهجرة بمشكلات «الجيل الثاني» أي جيل الأبناء ؛ وأصحاب بعض الحالات من هذا الصنف غالبا ما تعترضهم صعوبات تعود إلى سوء التكيف مع الوسط الاجتماعي وتباين القيم وتصارع المرجعيات الثقافية، والأبناء هم الضحايا فلاهم استطاعوا أن يكونوا محتدين للنموذج الأوربي والتماهي معه، ولا هم استطاعوا أن يظلوا محافظين على انتماء الآباء وتقمص الهوية المغربية وما تعنيه من مقومات دينية ولغوية وقومية وتاريخية وثقافية. والنتيجة إذن هي أن هذه الفئة تعيش أزمة هوية بالأساس ولم تحقق الاندماج

المطلوب وتعاني من الاحباطات والسلبيات فهي ممزقة الأوصال تتنازعها اتجاهات مختلفة ومنشطرة على نفسها فيما يخص التقاليد والعادات والسلوك؛ وبكلمة مختصرة فإن مشاكل الأطفال هنا جزء من مشاكل أسرهم وذويهم . وإذا كانت وضعية هذا الصنف الأول كما أسلفنا ، فإن وضعية الصنف الثاني وهي التي تعنينا أكثر لأننا اخترنا أن نركز على أحوالها ونسلط الضوء عليها نظرا لأن أعدادها ما تنفك تتزايد سنة بعد أخرى، ثم نظرا لتعرضها لشتى أنواع الاستغلال والتجاوزات وصنوف المعاناة والشقاء بل أكاد أقول التيه في عوالم التشرد والانحراف والارتماء في شرك العصابات وبالتالي الانحدار في مهاوي الجريمة إلا من كتب الله له النجاة ووقاه من تلك الشرور والآفات . . . ونشير إلى ما أورده يوسف الهلالي في مقاله: هجرة الأطفال القاصرين : « . . . وتوجد مافيا تهريب اسبانية تقوم باستغلال هؤلاء الأطفال سواء في بعض الأعمال أو في الدعارة وهو ما ظهر من خلال فضيحة نادي »أرني«الذي تقصده شخصيات اسبانية رفيعة المستوى لممارسة الشذوذ الجنسي . . . وهذا النادي كان ملكا لأحد رجال الأمن باشبيلية[1] .

دواعي الهجرة السرية وخاصة هجرة الأطفال

هل يسري التفسير الديمغرافي وينطبق على ظاهرة هجرة الأطفال القاصرين؟ نستعير جواب المكي بنطاهر الذي يقول : »لايؤدي التفسير الديمغرافي للهجرة إلا إلى تفسير فرداني لا يصمد عند التحليل؛ إنه يؤدي إلى تجريد المهاجر الذي نعزو إليه القدرة على تفسير كل شيء، ويؤدي كذلك

(١) جريدة الاتحاد الاشتراكي (المغربية) ليوم ١٢ أكتوبر ١٩٩٩م.

إلى اختزال للفرد حقا في اعتباره عنصرا فعالا، شابا أو متزوجا، عربيا في فرنسا، قروي الأصول وبالتالي بدون تكوين، وغالبا ما يكون حاملا لأمراض جنسية، ولما لا عنده استعداد قوي للانحراف والإجرام، هكذا تبدو صورة المهاجر في النموذج من التفسير الذي لا تخفى جوانب قصوره. . .

بينما كان الأولى أن نبحث عن تفسير للظاهرة من خلال مسيرة ورحلة المهاجر»[1].

لقد ساهم فشل السياسات التعليمية السابقة واستنفاذها لخطابها المتفائل عندما طفت ظاهرة بطالة الخريجين وحملة الشهادات المختلفة على السطح في أن الأطفال الصغار لم يسلموا من تأثيراتها النفسية عليهم وتثبيط عزائمهم وخبو جذوة حماسهم أو فقدان الثقة في المدرسة في التعليم بالمرة ولو بشكل مبسط ؛ إن التعليم بجميع أسلاكه في المغرب عندما يفضي إلى الشارع، إلى الاعتصامات والوقفات أمام مقرات الوزارات والبرلمان وإلى الاصطدامات مع قوات البوليس أحيانا والعجز التام عن ايجاد حلول ناجعة؛ فكيف للأطفال وهم يرون كل هذا أمام أعينهم أن لا تتزعزع ثقتهم في التعليم والمدرسة هل يمكن أن نعتبر وضعية هؤلاء الأطفال أي أطفال الهجرة شبيهة بوضعية أطفال الشوارع ؟ إن عقد مقارنة بين هؤلاء وأولئك تظهر بأن الوضعية تختلف لأن الطفل المهاجر في بلد مختلف وثقافة مختلفة وحضارة وأناس ذوي لغة غريبة عما يوجد في بلده الأصلي وتكفي الإشارة هنا إلى صعوبة التفاهم والتواصل عند جهل لغة البلد المستقبل وهذا ما يحصل في الغالب الأعم.

---

(1) Mekki BENTAHAR; les Arabs en France; S.M.E.R; Rabat-1979; p.22

ثم هناك ظاهرة الفارين من بيوتهم الأسرية Run away كما هو الحال في بعض المجتمعات الغربية مثل أمريكا وعددهم المتزايد سنة بعد أخرى، الفرق بين هؤلاء وأولائك أن الأخرين ربما فروا في داخل نفس البلد ولو كانت بشساعة الولايات المتحدة الأمريكية.

التساؤل الملح بصدد الظاهرة هو ما الذي يدفع أطفالا قاصرين إلى خوض غمار تجربة الهجرة السرية؟ أيكفي أن نقول بأنهم لو لم يروا من يكبرهم من أقاربهم ومعارفهم في أحيائهم في قراهم في مدنهم لما أقدموا على ذلك. هل نحن أمام تقليد للكبار من لدن الصغار؟ لا نظن أن المسألة مسألة تقليد «أعمى» فحسب. ربما كان هذا تفسيرا لعامل من بين عوامل اجتماعية أخريتعلق بالوضع الاقتصادي والاجتماعي للأسرة، وحتى في هذه الحالة فلا يكفي أن نعزو كل شيء للأسباب الاقتصادية والفقر فهناك بدون شك تضافر لعوامل مختلفة ويلعب فيها العامل السيكولوجي الدور الكبير؛ أي تلك الدوافع النفسية القوية من رغبة جامحة في ترك بلد تنامى الإحساس فيه لدى فئات عريضة من الشباب وانتقل حتى إلى الأطفال، بعدم الرضا بعدم القبول بهذه القسمة الضيزى لثروات وإمكانات الوطن، حيت القلة تملك الكثير والأغلبية تقتسم القليل، مظاهر التفاوت الطبقي واليأس وانسداد آفاق المستقبل. إذا أضفنا استعراض أمارات البذخ والاستهلاك في السكن والسيارات والمقتنيات وما لذ من الطعام وما يلاحظ أيام الصيف أو العطل من دفعات العمال القاطنين بالخارج أي فئات من المهاجرين تبدو عليهم النعمة وعلامات اليسر والغنى.

يقول عبد الكريم الجويطي في تحقيقه الروائي الذي يعالج فيه الهجرة إلى إيطاليا في مدينة الفقيه بنصالح ويسلط الضوء على انعكاسات هذه الهجرة الأشبه بالجماعية نحو إيطاليا بالضبط : لنتمعن قليلا في هذه القدرة

الخارقة على المخاطرة بالموت التي تفجرت في منطقة عرفت في زمن الاحتلال ما يشبه الاستكانة والطواعية، وعاشت سنوات الاستقلال وكأن لا مطالب لأهلها في عصاب الرحيل الجماعي العاصف هذا، في منطقة يقول التاريخ بأنها عرفت أول تجربة سقوية عصرية في المغرب.

ويقول أيضا سيخيم ما يشبه التعقل على المدينة وهي تعيد اكتشاف فداحة ثمن عصاب الرحيل الجماعي، لكنها وبعد حين ستستسلم لغوايات وبريق المكان الآخر...

من يرى أسراب السيارات التي تعبر باب الخميس في شهري يوليوز وغشت يمكنه أن يفهم بحق بعض أسرار حمى الرحيل التي اجتاحت أراضي بني عمير.. فالسيارة والحقائب الكثيرة يكون لها فعل مزلزل في قلوب من تخلف بهم الركب وشلهم الانتظار والقلق لا أحد يدقق في كلفة ذلك من العذابات، ربما لهذا السبب تقدم المدينة للبحر أكثر قرابينها في الصيف... الصمت، الصمت العنيف وحده هو القادر على سبر ما حل بوطن يكبر فيه الأطفال وهم يطاولون حلم الرحيل[1].

أما الأستاذ محمد الخشاني فندعه يحكي لنا عن قصة معبرة جدا، وقد وجدنا فيها بعض ما يشفي غليلنا للجواب عن تساؤل ظل يراودنا طيلة الانشغال بموضوع هجرة الأطفال القاصرين من المغرب في اتجاه البلاد الأوربية ألا وهو: ألا يوجد من بين هؤلاء الأطفال الذين نتحدث عنهم رغم أن أذهاننا وتفكيرنا ينصرف مباشرة حين الحديث عن الأطفال إلى جنس الذكور فحسب، وهكذا يتم استبعاد سواء شعوريا أم لا

---

(١) جريدة الصباح (المغربية) ليوم ١٣ ماي ٢٠٠٠م.

شعوريا الجنس الآخر أي الفتيات الصغيرات. وملخص القصة هو أن الأستاذ محمد الخشاني كان يقوم ببحث حول عمل الأطفال بالمغرب وكان قد اختار بادية منطقة القصر الكبير بشمال المغرب، وكانت أمامه فتاة راعية صغيرة يستجوبها لم يتجاوز عمرها تسع سنوات؛ وبعد أن ثلقى منها الأجوبة عن مختلف الأسئلة التي كانت تتعلق ب«طموحات أو تطلعات الطفل المستقبلية«، وبما أن الاستبيان كان مغلقا - أي محدد الأسئلة - فقد جاء من بين تلك الأسئلة سؤال حول الهجرة خارج المغرب. . . وكم كانت دهشة الباحث الخشاني عندما أجابت الطفلة الراعية القروية بقولها: «أنا أريد أن أهاجر إلى اسبانيا».

ويضيف محمد الخشاني أن ٢٣ ردا يفيد تقريبا نفس المعنى، وذلك من بين ٢٥٠ جوابا لعينة تتكون من فتيات تتراوح أعمارهن بين ١٢ و ١٤ سنة وبالخصوص اللواتي ينتمين إلى المراكز الحضرية.

وعند تقصي الباحث لأحوال هذه الطفلة وجد أن إحدى نساء القرية وهي ربة بيت قد هاجرت إلى اسبانيا وتركت وراءها الزوج والأولاد، وبعد أن جمعت بعض المال استطاعت أن تشيد للأسرة منزلا كبيرا (وفخما) يعد من أكبر البيوت في القرية؛ وهكذا اتخذتها الطفلة نموذجها ومثالها الأعلى في الترقي الاجتماعي وانتشالها من وضعيتها المزرية.

كيف يتم التعامل مع الظاهرة

لقد بدأت بعض المنظمات الحقوقية مثلا في اسبانيا تقرع في الآونة الأخيرة ناقوس الخطر من تفاحش هذه الظاهرة وما يصاحبها من مخاطر على حياة هؤلاء الأطفال وليس فقط تعرضهم لأشكال الاستغلال المختلفة؛ فماذا فعل المغرب من جهته كحكومة وفعاليات مجتمع مدني؟

لماذا لا يقابل هذا الاهتمام الأجنبي الحقوقي اهتمام وطني بهذا الموضوع؟ هل لشدة حساسيته وخطورته؟ إن البعض يعتبره كوباء ووصمة عار ن كموضوع لجنون البشر أو بالأحرى ظاهرة ل «عصاب جماعي» لدى فئة الأطفال القاصرين واندفاعهم بهوس إلى الهجرة السرية رغم أنه لم يبق منها أي وجه للسرية . إنها تشكل جزءا من كل، شريحة من مجتمع ، وليس بالتأكيد أزمة أطفال وشباب لوحدهم، بل أزمة مجتمع بكامله . صحيح أنها تتعلق بقئة صغيرة في سنها قليلة نسبيا في عددها وحديثة في ظهورها، إلا أننا نجد بأن المشاكل العويصة التي يتخبط فيها المهاجرون الكبار السابقون رجالا ونساء ما تزال لا تلقى بدورها سبلا لحلها ومنذ سنوات، فكيف ينبغي التفكير في مشاكل بضع مئات من الأطفال والعمل على إيجاد حلول لها قبل تفاقمها أمام المشاكل المتراكمة من قبلها؟ وباستثناء وسائل الإعلام المختلفة المرئية والمكتوبة والمسموعة الوطنية والأجنبية علما بأن الأجنبية كانت هي السباقة إلى إثارة الاهتمام بالموضوع- التي كانت وما تزال تواكب الأحداث وما يكتنفها من رصد وتتبع لحركات شبكات التهريب البشري أو اعتراض طريق المراكب والقوارب في عرض البحار، أو محاولات الإنقاذ أو اعتقالات لهؤلاء المرشحين للهجرة أو اكتشاف لجثت

الغرقى . . . وغير ذلك ؛ باستثناء ذلك فإن الإهمال سرعان ما يطالها في الواقع المعيش . وحتى إذا انتقلنا إلى مجال الدراسة والتحليل لها أي للظاهرة فكأنه ما يزال نوعا ما مؤجلا وإلى حين . . . فلم يجرؤ أحد بعد على خوض غمار البحث العلمي الرصين والموثق عنها-في حدود علمنا وقد يكون مرجع ذلك إلى أن التناول العلمي لأية ظاهرة إنسانية مثل هذه يحتاج إلى انصرام وقت كاف عليها ، واتخاذ مسافة زمنية عنها ، وهو ما يعتبر ضروريا ولازما منهجيا لمقاربتها بتأن وموضوعية .

لابد من التساؤل عن مدى حجم الظاهرة والموقف الرسمي منها كيف يتعامل معها المسؤولون الرسميون؟ هل ثمة اعتراف بها أم تجاهل أم عدم إدراك لخطورتها؟ أو بالأحرى عدم وعي بوجودها أصلا ؟ أم أنها مادامت تقع على أرض بعيدة أجنبية (إيطاليا واسبانيا بشكل ملفت) فهي لا تعني هذه الجهات الحكومية في الداخل على الأقل . هل تدخل من اختصاصات الممثليات الدبلوماسية التي تتنصل عن قيامها بما يفرضه عليها الواجب . . .

وفي اعتقادنا أن هذه المسائل أبعد من أن تثير انشغال السفارات والقنصليات المغربية في الخارج ، ذلك أنها تظن أنها غارقة فيما يكفي من المشاغل ولا تريد مزيدا منها . هل مؤسسة الحسن الثاني للعاملين بالخارج هي الجهة التي عليها أن تعتني بهذه الظاهرة الحديثة الظهور نسبيا؟ أم أن الكل لا يريد ولا يرغب في إثارة صداع للرأس بالالتفات إلى هذه الفئة من فلذات أكبادنا؟ ومن الغريب أن الجهة المكلفة بملف الهجرة هي وزارة الداخلية ، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على طغيان المقاربة الأمنية الضيقة في معالجة الموضوع-الظاهرة على باقي المقاربات الأخرى . ربما كانت وسائل الإعلام وحدها التي تحرك هذه المواجع سواء في البلاد المستقبلة لهم

والتي تنقل عنها وسائل إعلامنا الوطنية. وقد يخفي الكثير منا رؤوسهم في التراب ما دامت الظاهرة بالغة التعقيد ولا يستطيع أحد أن يحدد العدد الإجمالي أو أن يحصر أبعاد الظاهرة من حيث أماكن التواجد ما دام الأمر يتعلق بأطفال/ أحداث رحل بين القرى والمدن الأوربية فهم أشبه بما يطلق عليهم أطفال الشوارع بصيغة مروعة أكثر ، ذلك أن المدن والشوارع مدن وشوارع أوربية إيطالية واسبانية ولعل المآسي نفسها أخطر وأفظع. فكيف لا يدنو أكثر هؤلاء من حافة الانحراف؟ وكيف لا يكونون عرضة حتى للجنون ومختلف الاضطرابات السلوكية والنفسية؟

في غياب دراسات وأبحاث ميدانية رصينة لظاهرة هجرة الأطفال المغاربة إلى بلاد الغربة تبقى الكثير من نقط الاستفهام قائمة فيما يخص كيف يسدون رمقهم في هذه البيئات؟ كيف يستطيعون ضمان عيشهم في مستوياته الدنيا؟ أين يقضون لياليهم؟ و ما ذا إذا وقعوا فريسة للمرض؟ وربما يكون من العبث الحديث هنا، في حالتهم ،عن الحق في التربية والتعليم والحق في العيش في جو يسوده الاستقرار والعطف الأسري وغيرها من الحقوق الأساسية لمن هم في سنهم. . .

الوضعية الصعبة للأطفال «الحاركين»

ربما كانوا في أحوال أبسط ما يقال عنها أنها أقصى درجات العزلة والنبذ ـ النبذ المزدوج أو المضاعف-لقد نبذهم مجتمعهم الأصلي في الأول ولفظهم، ولن يقبلهم المجتمع الذي حلوا به غير مرغوب فيهم ، فهل بمقدورهم أن يواجهوا هذه الصعوبات؟ هل باستطاعتهم تحدي كل الصعاب والعراقيل ؟ هل سيكسبون رهان المغامرة «النجاح» في التغلب على آفاق المجهول المشرعة أمامهم؟ كم منهم سيستطيع اجتياز الاختبار الصعب؟ كم

منهم ستنهار قواه العضلية البدنية والمعنوية دون أن يبلغ ما يتمناه؟ هل سيجد في الظروف المتاحة ما ينقذه من المطاردة بكل أشكالها، من التشرد؟ كيف ينجو من شرك الأشرار والعصابات والمافيات وغيرها من شبكات الجريمة والدعارة والمخدرات المحكمة التنظيم والتي عندما تحكم قبضتها عليهم لا يكون لهم فكاك منها؟ فكونهم خارج جميع المؤسسات الاجتماعية بما فيها الأسرة والمدرسة والمجتمع الأصلي، فلا ينتظر أن ترحب بهم هذه المجتمعات التي تعتبر أنهم اقتحموها بدون استئذان . . . من هنا يسهل وقوعهم في براثن تلك الشبكات . . .

لكن وقبل كل شيء آخر، ألا يمكن التساؤل عن وضع هؤلاء الفتية الجديد في هذه البلدان ؟ كيف ينظر إلى وضعيتهم القانونية خاصة إذا كانوا مهاجرين سريين-أي بصورة غير قانونية؟ إذن وإزاء هذه الإشكالية من يحمي حقوقهم؟ إذا افترضنا أن لديهم حقوقا في هذه الوضعية، هل يمكن القول بسهولة أن المسؤولية تقع على الدولة التي صدرتهم بطريقة غير مباشرة وكفى؟ أم أنهم قد خالفوا القانون لأن دخولهم تلك البلدان كان في الغالب بطريقة خارجة عن القوانين ، فيجب أن يعاقبوا ويسجنوا ويودعوا في مراكز حراسة أو يردوا إلى بلدانهم . والحال أن هذه الاجراءات ليست بناجعة ولا كفيلة بحل المشكل، ذلك أنه أعقد من ذلك بكثير . . . هذا إذا افترضنا أن هؤلاء الأطفال / الأحداث لم يقترفوا أي جرم آخر إلا دخولهم واجتيازهم الحدود بدون تأشيرة ، بدون جواز، بدون أية هوية أو ورقة إثبات لها ، ناهيك إذا ضبط هؤلاء في أعمال سرقة أو نهب أو تسول أو تشرد أو غير ها من المخالفات والجرائم الصغيرة. وهي لعمري الممارسات التي يسقط فيها أغلبهم وهم مجبرون على ذلك في سبيل العيش كلفهم ذلك ما كلفهم . . .

لن ندخل الآن في نقاش قانوني أكاديمي حول ما إذا كانت الهجرة السرية فعلا إجراميا أو غير إجرامي ، أو البحث عن تبريرات إنسانية ومن جانب حقوقي . ولكن ما يهمنا أكثر هو محاولة التعرف على الأسباب السيكولوجية والبواعث الاجتماعية التي تشكل خلفية المهاجر الصغير التي دفعته إلى ركوب مغامرة الهجرة . وكما هو معروف في أدبيات الاتجاه الفينومنولوجي فينبغي التحري عن مغزى أو معنى الفعل بالنسبة للفاعل ، فكيف يدرك الطفل/ الشاب اليافع هذا »العالم«عالم أوربا »السحري« في ضيافة المقت والاحتقار والحجز والاعتقال ثم الطرد .

مثال استغلال حتى لصغار الرياضيين

من الدوافع إلى هجرة الشبان هي ما يتعرضون له من استغلال خاصة في رياضة ألعاب القوى ؛ الاستغلال مصدره الذين من المفروض فيهم حماية ورعاية هؤلاء الشبان أي من المسؤولين الرسميين عنهم في «الجامعة المغربية لألعاب القوى» فبمجرد ظهور بوادر النبوغ لدى بعض «البراعم»الذين يطمحون إلى الشهرة والمال والمكانة الرفيعة والمستقبل الواعد المشروع يتصدى لهم «تجار ومرتزقو الرياضة» الذين يسيؤون لسمعة البلاد مما يضطر هؤلاء الأبطال الصغار للتفكير في الهروب وانتهاز فرص الهجرة إلى الخارج ؛ هؤلاء الأبطال سرعان ما يتمكنون من الانضمام لفرق أجنبية والتي تتلقاهم بترحاب . بل إنهم سرعان ما يحملون قمصان ورايات أجنبية عندما يتيسر أمامهم حمل الجنسية الأجنبية لتلك الدول التي احتضنتهم . إذن لننظر في هذه الحالات التي نجمت عن الغبن والاستغلال من أبناء البلد وظلم ذوي القربى وهو أشد مرارة مما يدفع إلى التنكر لقيم الوطن والتخلي كرها عن الانتماء إليه وحمل جنسيته . ألا يمكن أن نعتبر أن هذا السلوك

شيء مخجل حقا؟ والسؤال الذي يجب أن نطرحه هنا هو: هل يفكر في الهجرة يوجد مواطن مغربي- ولو كان شابا جميع حقوقه وكرامته مضمونة؟

وجدير بالإشارة كذلك أن ما يقع في ميدان الرياضة الذي ينبغي أن يظل شريفا وبعيدا عن التصرفات المشينة وقع مثله من قبل في مجال هجرة الأدمغة والطاقات البشرية الشابة، تلك الطاقات الخلاقة والمبدعة في وطننا العربي عموما والمغرب بصفة خاصة؛ لكن مع فارق وهو أن المآسي تكون أقل بالنسبة لهذه الفئة الأخيرة والتي لم تكن لتجد في بلدانها هي الأخرى ظروفا ملائمة للدراسة والبحث وما يتطلبه ذلك من أجواء الحرية والإمكانات والوسائل ومن التشجيع والتحفيز ومن أسباب العيش الكريم الرغيد؛ فتتلقفها دول أخرى تقدر العلم والبحث حق قدرهما فتهيء لهم البيئة المساعدة على العطاء والبذل والتفرغ للأعمال العلمية المختلفة. في مقابل هذه المعاملة وهذه المغريات، لنا أن نتصور كيف سيكون الموقف إزاء »الحاركين« عن طريق الهجرة السرية بما فيهم الأطفال؛ خاصة وأن أغلب هؤلاء غير مؤهلين وربما لم يكتب لهم أن يكملوا دراستهم ولو في مستوى التعليم الأساسي. إذن فالنظرة إلى الفئتين ستتغير والموقف منهما سيختلف فبقدر ما تفرض الفئة الأولى الاحترام بتكوينها، بعلمها، بقيمتها الفكرية سينظر إلى الفئة الثانية نظرة ازدراء واحتقار وتوجس...

المراجع

المراجـــــع

أولاً: المراجع العربية

أحمد إحدوثن، المغرب واسبانيا ، سلسلة شراع، العدد ٤٧ ، طنجة، المغرب.

أحمد البكاي . وضعية الطفل المغربي في المهجر / هولندا نموذجا، مطبعة إليت الرباط، ١٩٩٤م.

أحمد البكاي. الإشكالية النفسية للطفل/ الشاب الأوربي المغربي في أفق ٢٠١٥ ، سلسلة الطفل الشاب/ الأسرة والهجرة، دراسة ميدانية الطبعة الأولى، مطبعة امبريال ، الرباط ٢٠٠٠م.

أعمال ندوة «الهجرة السرية» نظمتها كلية العلوم القانونية والاقتصادية والاجتماعية، جامعة محمد الخامس أكدال، الرباط، ١٩٩٩م.

الصباح ليوم ١٣ ماي ٢٠٠٠م.

جرائد : الاتحاد الاشتراكي ليوم ١٢ أكتوبر١٩٩٩م.

حسن الضيقة : الظاهرة الرأسمالية نظرة نقدية في التاريخ والايديولوجيا، دار المنتخب العربي، بيروت، ١٩٩٤م.

د. وليم الخولي: الموسوعة المختصرة في علم النفس والطب العقلي، دار المعارف بمصر، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٨٦م.

مجلة عالم العمل ، منظمة العمل الدولية، العدد الرابع ، يونيو ١٩٩٣م، مكتب العمل الدولي جنيف.

ثانياً: المراجع الأجنبية

Actes du Colloque International Femmes et Migration

BENTAHAR Mekki; les Arabs en France; S.M.E.R; Rabat-1979.

EDOUARD Moha;Immigrés autre enjeu politique ; Zin Editions; Imprimerie Eddar El Beida ;1987.

KHACHANI Mohamed; la femme marocaine immigrée dans l espace économique des pays daccueil : quelques repères in Revue Politique et Economique du Maroc ; Numéro Spécial:

MICHEL-CHICH Danielle ; déracinés ;, les pieds noirs aujourd'hui ;édition Plume ;Paris ; 1990.